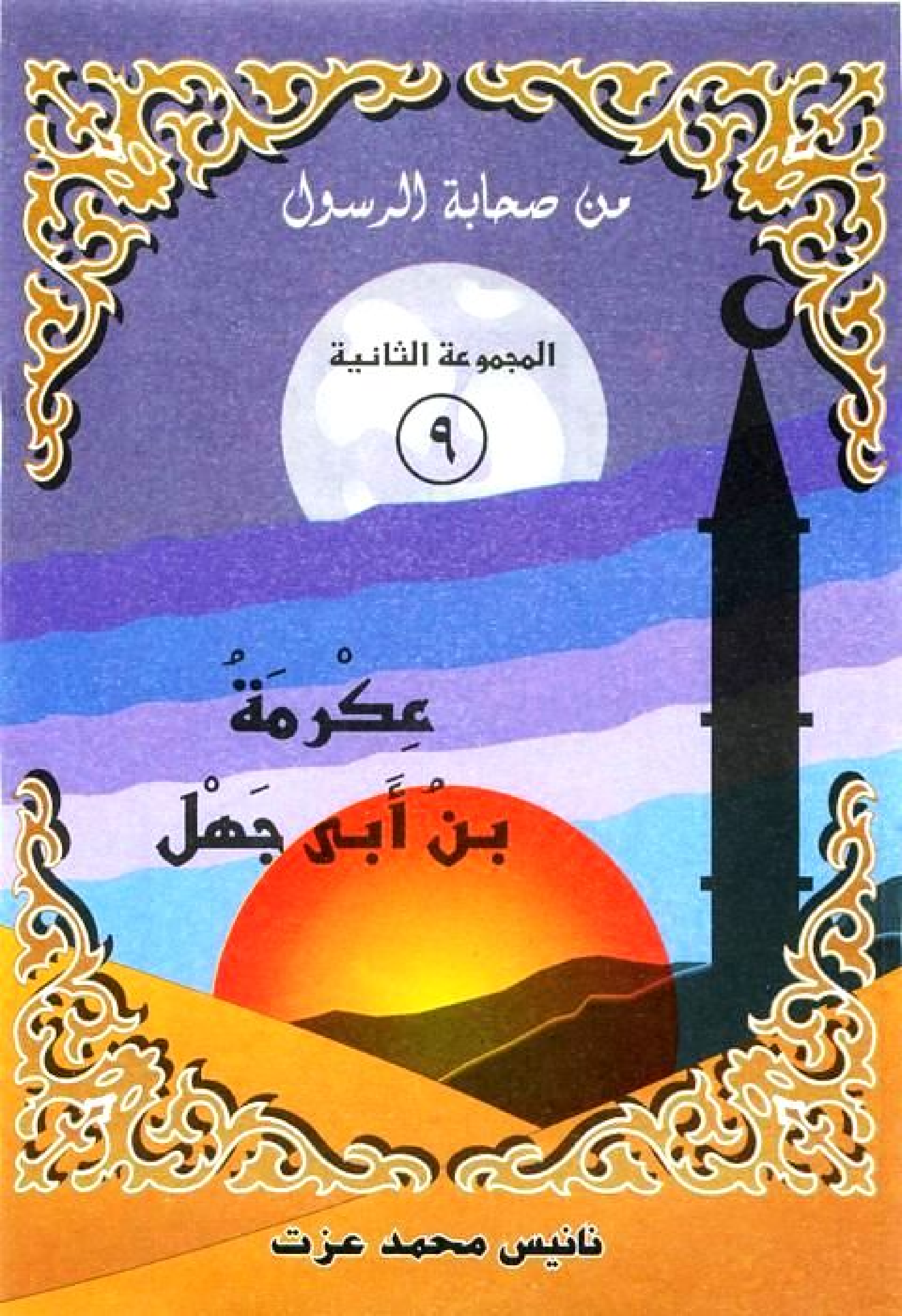


من صحابة الرسول
المجموعة الثانية
٩
عِكْرِمَةُ
بنُ أَبي جَهْل
نانيس محمد عزت

عكرمة بن أبى جهل

فى يومٍ من أيّام الصَّيفِ الحارّة ، خرج أيمنُ وأبوه وإخوَتُه يتَنزَّهونَ فى إحدَى الحدائق ، لِيَنْعَموا بجَوِّها الصَّحو ، وهوائها المُنعِشِ العَليل .

فبعدَ أن تَعِبوا من الجَرىِ واللَّعب ، جَلسوا ليَنالوا قِسْطاً من الرَّاحة ، ويَتناولوا بَعضَ المأكولات الخَفيفة .

وعِندَها التَفَت أيمنُ إلى والدِهِ وقال :

ـ عوَّدتنا يا أبى أن تقُصَّ علينا بين يومٍ وآخَر قصَصَ الصَّحابَةِ الأوائل ، ومواقِفِهم العَظيمَةِ الّتى نُعجَبُ بها .

فهل نطمع أن تَقُصَّ علَينا الآنَ إحدَى هذه القِصَص ؟

قوبلَت فكرةُ أيمَنَ بتَأييدٍ من أخيه مَحمود وأُختِه هدى وقالا : نعم يا أبى ، نرجو أن تقُصَّ علينا قِصَّةَ واحِدٍ منَ الصَّحابَة .

قالَ والِدُهم : ما دامَ هذا مطلبَكُم جَميعاً ، فاسْمَعوا الآنْ قِصَّةَ عِكرِمَةَ بنِ أبى جَهْل .

اسْتنكرَ مَحمودٌ ما قال والِدُه وقال : نُريدُ يا أبى أن نستمِعَ إلَى قصَّةِ أحَدِ الصَّحابةِ الأفاضل ، وليسَ إلى قِصَّةِ أحَدِ أعوانِ الكُفرِ والعِصْيان .

فأبتسمَ والِدُه وقال : ومن أخبرَكَ أنَّ عِكرِمَةَ لم يكنْ من الصَّحابَةِ الأَفاضل ، ولم تكن له مَواقِفُ مَشهودَةٌ فى الإسْلام ؟

فاستعجَبَ الإخوَةُ جَميعاً لقَولِ أبيهِم ، وأيَّدَ أبوهُم كلامَهُ قال : نعم كانَ عِكرِمَةُ من أكثرِ الكُفّارِ عِنادًا وشَراسَة وضَراوَة ، وأشَدَّهم كَراهَةً لمُحمَّد - صَلّى اللّهُ عليهِ وسَلَّم - وللإسْلام ، ولكِن انْظُروا يا أَبنائى ماذا كانَ من أمرِه ، وكيفَ خَتَم حياتَه شَهيداً فى مَيدان

القِتال ، وكيفَ قدَّم روحَهُ راضِياً في سَبيلِ نُصرةِ الإسلام .

واسْتطاعَ الأبُ بذلك أن يَشُدَّ انْتِباهَ أبنائه إلى قِصَّةِ عِكرِمَةَ بنِ أبي جَهل ، ووجَدَهم مُشْتاقينَ لمعرِفَةِ حَقيقَةِ أمرِه ، فراحَ يَحكي لهم قِصَّتَه ، قال :

ـ كان عِكرِمةُ من أكْرم بُيوتِ مَكّةَ وأعزِّها وأكثرِها مالا ، وكانَ من أشهرِ فُرسانِها ، وأبوهُ الحَكَمُ بنُ هِشامٍ أحدَ زُعَمائها ، وكَلمَتُهُ مَسموعَةٌ في قَبائلِ العَرَب .

وعِندَما بدأ مُحمَّدُ بنُ عَبدِ اللّه ـ صلّى اللّهُ عليهِ وسلّم ـ يَدعو إلى نَبذِ عِبادَةِ الأَصْنام ، وعِبادَةِ اللّهِ الواحِدِ الأحَد ، دَفعتِ الحَميَّةُ القبلِيَّةُ والخَوفُ من فِقدانِ السُّلطَةِ والنُّفوذِ والغِنَى ، الحكَمَ بنَ هِشامٍ أن يَكونَ أشدَّ أعْداءِ مُحمَّد ـ صلّى اللّهُ عليهِ وسلّم ـ فكانَ هو زَعيمَ الشّركِ الأوّل ، فعادَى الرَّسولَ أشَدَّ العِداء ، وأنزل

أشدَّ أنواعِ العَذابِ بأصْحابِه ، وكانَ منَ الطَّبيعيِّ أن يتبعَهُ في ذلِك ولَدُهُ عِكرِمة ، فكان يَدَهُ الَّتي يَبطِشُ بها ، وسَوطَهُ الَّذي يَضرِبُ به ضِعافَ المُسلمين ، حتّى أصبحَ عِكرِمَةُ مثلَ أبيه من أشْهَرِ صَناديدِ قُريش ، وأشَدِّهِم عَداوَةً للإسْلام .

قالَ مَحمود : إنَّ ما قامَ به الحكَمُ بنُ هِشامٍ لصَدِّ النّاسِ عن دينِ اللّه ، تَحتاجُ حِكايتُه لساعاتٍ وساعات ، حتّى إنَّ النَّبيَّ ـ صلّى اللّهُ عليهِ وسلّم ـ على الرُّغمِ من حِلمِهِ وسَعَةِ صَدرِه ، لم يَمنَعْ أصْحابَهُ من إطْلاقِ اسمِ أبي جَهلٍ عَليه ، ومُنذُ تِلك اللَّحظةِ عُرفَ الحكمُ بنُ هِشامٍ باسم « أبي جَهْل » .

قالَ والِدُه : صَدقتَ يا مَحمود ، ولكنَّ اللّهَ سُبحانَه وتَعالى ، أرادَ أن يلطُفَ بعِبادِه المُسْتَضْعَفين ، ويُريحَ المُسلِمينَ من ظُلمِهِ وجَبَروتِه ، فكانَتْ نِهايَتُهُ في يَومِ بَدْر .

وقد عَرَفتُم بالطَّبع قِصَّة القافِلَةِ الَّتى أرادَ المُسلِمونَ أنْ يُغيروا علَيها ، وكيفَ استطاعَ أبو سُفيانَ أن يَنجو بها ، وكيفَ خَرجتْ قُريشٌ فى جيشٍ كَبيرٍ لمُلاقاةِ مُحمَّد ـ صلَّى اللَّهُ عَليهِ وسلَّم ـ خرَجتْ إليه بكلِّ زُعَمائها وصَناديدِ الكُفرِ بها . وكانَ الحكَمُ بُنُ هِشامٍ وابنُهُ عِكرِمَة ، علَى رأسِ هَذا الجَيش . وإن كانَ أبو جَهلٍ يَرَى أنَّها مُجرَّدُ نُزهَةٍ وليست حَرباً ، فأقامَ الاحْتِفالات ، ونحرَ الإبل ، وسقى الخُمور .

وكانَ اللَّهُ ـ سُبحانَهُ وتَعالى ـ للحكَمِ بالمِرصاد ، فقُتِلَ بأيْدى الضُّعَفاءِ الَّذينَ طالَما ألهَبَ ظُهورَهُم بسَوطه .

قالت هُدَى : وماذا عن عِكرِمة ؟ ماذا جَرَى له فى المَعْركَة ؟

قالَ والِدُها : استْطاعَ عِكرِمَةُ أن يَنجُوَ بَنفسِه ، ففرَّ بعد أن رأى مَصرعَ أبيهِ أمامَ عَينيْه ، مِمّا دَفعَهُ لأنْ يحتلَّ مكانَ أبيه ، ويَحفِزَهُ لأنْ يَقتُلَ مَحمَّداً انتِقاماً لَمقْتَلِه .

تعجَّبَ أيمنُ فقال : إنَّها بِدايةٌ سيِّئةٌ لا تُبشِّرُ بقصَّةِ صَحابِيٍّ مُخلِص .

قالَ والِدُه : هذا جُزءٌ من كُلّ . فقدْ كانَ له الكَثيرُ منَ المَواقِفِ الَّتي أظهرَ فيها أشدَّ العِداءِ والكُرهِ لرَسولِ اللّهِ ـ صلَّى اللّهُ عَليهِ وسلَّم ـ وللدِّين الإسْلامِيّ .

ففي يَومِ أُحُد ، تَولَّى مَيسَرَةَ جَيشِ المُشرِكين ، وها هوَ ذا يُشارِكُ في حِصار الخَندَق ، ولَم يَكتَفِ بحِصار الخَندَقِ وإنَّما يُحاوِلُ اجْتيازَه هو وبَعضُ المُشرِكين ، ولكنَّ سُيوفَ المُسلِمينَ كانتْ لَهُم بِالمرصاد ، ولم يُنجه إلاّ الفِرار .

ويومَ الفَتحِ الأكْبر ، يْومَ فَتح مكّة ، لم يَخْضَع عِكرِمَةُ وَيَرضَى بدُعاءِ أبي سُفيان : من دَخــلَ دارَهُ فهــو آمِــن . بل فضّلَ القِتالَ والدِّفاعَ عن دينِ أجْدادِه لآخـِـر لحْظَـة ، فجمعَ فِتيانَهُ وجُنودَهُ من بَني مَخْزومٍ لُملاقـاةِ المُسْلِمين ، فتَصدَّى لهم سيفُ اللّهِ المَسلولُ خالدُ بنُ الوَليد ، ولقّنهُم دَرساً عَظيماً ، فلم يَجدْ عِكرِمةُ بدّاً من الفِرار من مَكّــة ، خاصَّةً بعدَ أنْ أعْلنَ الرَّسول ـ صَلّى اللّهُ عَليهِ وسَلّم ـــ عَفوَهُ عن أهل مكّة ، مُستَثنِيا منهْم جَماعَةً قَليلة ، علـى رَأسِهِم عِكرِمةُ بنُ أبي جَهْل ، فقـد أحـلَّ ـ صلّـى اللّـه عَليهِ وسَلّم ـ دَمَه . فَتوجَّـه عِكرِمـةُ إلىَ اليَمَـن ، ولكـنَّ الخَوفَ دفَعهُ إلىَ مُواصَلَةِ الهِجرَةِ إلى الحَبَشَة .

اسْتَقلَّ عِكرِمةُ السَّفينة إلىَ الحَبَشَـة ، وهُنـالِك كـانتِ اللّحظَةُ الحاسِـمَةُ فـى حَياتـه ، لَحظَـةُ انتِقالـِه مـن ظُلمَـةِ الشِّركِ إلى نورِ الإيمان .

اشتَدّ انْتباهُ الأَولاد ، وتَساءَل أيمَن : ماذا حدَثَ يا أَبي ؟ ماذا يُمكنُ أنْ يُغَيِّرَ عقيدَةَ شَخصٍ مثلَ عِكرِمة ؟

قال والِدُه : هَبَّت في أثْناءِ رِحلَتِهِ إلىَ الحَبَشَة ، ريحٌ عاصِفَةٌ شَديدَة ، كادَت تُوَدّي إلى غَرَقِ السَّفينَةِ بمَنْ عَلَيها .

ولما نادَى الرُّبّان الحَبَشِيّ : أخلِصوا نيّاتِكُم لِلّه ، فإنَّ آلِهَتكُمْ لَن تُغْنيَ عَنكُم شَيْئاً .

فكَّرَ عِكرِمَةُ في نَفْسِه : لن يُنجيني في البحر إلاّ الإخْلاص ، ولن يُنجيني في البرّ غيرُه .

ورفَعَ يَدَيْهِ إلىَ السَّماء داعِيا : اللّهُمَّ لكَ عليَّ عَهدٌ إنْ أنتَ عافيتَني مِمّا أنا فيه ، لآتِينَّ مُحَمَّداً حتى أضعَ يَدي في يَدِه ، ولأجدَنّهُ عَفوًّا كَريما .

ولطفَ اللّهُ العفوُّ الكَريمُ بعكرِمة ، وقبِلَ توبتَـه ونجّاهُ من شِدَّتِهِ الّتى كانَ فيها ، ليَصِلَ إلى مكّةَ ويُعلِنَ إسْلامَه ، ويَبدَأ حَياةً جَديدَة .

قـالتْ هُـدَى : لقـد أكْرَمَـه اللّـهُ سُبحانَهُ وتَعالى مِـنَ الغَرَق ، فإنْ كانَ قدْ ماتَ عِندَئذٍ لكانتْ عاقبتُه النّـارَ لا شَكَّ .

قالَ والدُها : نجا عِكرِمَة ، ولكنّهُ بَقى مُتَحيّراً . كيفَ يَصلُ إلى رَسول اللّه ـ صلّى اللّـه عَليـهِ وسَـلّم ـ وبأىِّ وَجهٍ يُقابِلُـه بعـدَ كـلِّ مـا كـانَ مِنـهُ من صَـدٍّ عـن دينـه وعُداونٍ لَه ولأَصْحابه ؟

وحدثَتِ المُفاجأة ، وقـابَلَ زَوجَتَـه ـ أمّ حَليمــة ـ وكانت قد أَسْلَمَت يَـومَ الفَتـحِ واستَأمَنَتِ الرَّسـول ـ صلىَّ اللّهُ عَلَيه وسَـلّم ـ علَـى زَوجِهـا ، فأمَّنَهـا عَليـه ،

فخرجَتْ تَبحثُ عَنـه حتّـى إذا وَجدَتْـهُ بادَرَتْـهُ بقَولِهـا : جئتُكَ من عندِ أفضلِ النَاسِ وأكرَمِهم ، وقد أمَّنَك .

وفى مكّةَ هـابَ عِكرِمَـةُ لَحظَـةَ اللّقـاء . وعنـدَ بـابِ الرَّسولِ لَقِىَ منَ العَفـوِ والسَّـماحَةِ والَمحبَّـة ، كـلَّ مـا لم يَخطُر على بالِه . فقدْ خَرجَ إلَيه ـ صلَىَّ اللّهُ عَليهِ وسـلّم ـ فعانَقَه وقال : مرْحَبا بالرّاكِبِ الُمهاجِر .

وسألهُ عِكرِمةُ عمّا يَجب عَليهِ أن يَفعَلَه ليُسلِم ، فقالَ ـ صلّى اللّهُ عَليهِ وسَلّم ـ تقولُ : أُشهِدُ اللّهَ وأُشْهِدُ من حَضَرَ أنّى مُسلِمٌ مُجاهِدٌ مُهاجِر .

عندئذ سأله ـ صلّى اللّهُ عَليهِ وسَلّم ـ أن يطلب مـا شاء وسوف يُعطاه . فكان طلبه العفوَ والسماحَ والتوبـةَ والمغفرة .

قال محمود : إن لحظة إسلامه هى لحظةُ ميلادٍ جديدٍ لـه . لحظةُ موتِ مشركٍ شقىٍّ ضال ، وميلادِ مسلم تقىٍّ ورع .

ودعا - صلّى اللّهُ عَليهِ وسَلّم - : اللهم اغفر له كلّ عداوةٍ عادانيها ، وكلّ مسير سار فيه إلى موضع يريد إطفاءَ نورِك ، واغفر له ما نال من عِرضى فى وجهى ، أو وأنا غائبٌ عنه .

فتهلّل وجه عكرمة فقال :

- أما واللّه يا رسولَ اللّه لا أدعُ نفقةً أنفقتُها فى الصدّ عن سبيل اللّه ، إلا أنفقتُ ضعفَها فى سبيلِ اللّه ، ولا قتالاً قاتلتُه فى الصَّدِ عن سبيلِ اللّه ، إلا قاتلتُ ضعفَه فى سبيلِ اللّه .

وتَحوّلَ عِكرِمةُ من حالٍ إلى حال ، منْ أكبَرِ صَناديدِ الكُفّارِ وأشْرَسِهم عَداوَةً للإسْلام ، إلى مُسلِمٍ عابِدٍ زاهِد ، يحرِصُ دائماً على العِبادَةِ ومُداوَمَةِ قِراءَةِ كِتابِ اللّه .

ووَفى عِكرِمَةُ بوَعدِه للرَّسول - صلّى اللّهُ عَليهِ وسَلّم - فكانَ سَيفاً من السُّيوفِ الّتى شَنّها الإسْلامُ

على المُنافِقينَ والكُفّار - فحَرَصَ علـى مُلاحَقـةِ المُنـافِقين الذّينَ تستّروا بِرداءِ الإسْلام ، خَوفاً منَ القَتل .

فما كان مِنهُم إلاّ أن يُغيظوهُ بقَولِهـم : هـذا عِكرِمـةُ ابنُ عدُوِّ اللّهِ أبى جَهل .

ويَغضَبُ عِكرِمةُ ويَشكوهُم للرّسول - صلّى اللّهُ عَليهِ وسَلّم - فيجمَـعُ الرّسـولُ النّـاسَ عِنـد البَيـتِ الحَـرام ، ويقولُ لهم : لا تَسُبّوا أباه ، فإنّ سبَّ المَيّتِ يُؤذى الحَـيَّ ولا يَبلُغُ المَيّت . ولا تقولوا عِكرِمةَ بنَ أبـى جَهـل ، بـل قولوا عِكرِمةَ بنَ عَمرِو بنِ هِشام .

وحَرَصَ عِكرِمةُ على نَشرِ الإسْـلامِ لِيُكفّـرَ عمّـا كـانَ مِنه من صَدٍّ عن سَبيلِه ، فمـا خـاضَ المُسلمونَ مَعرَكـةً بعد إسْلامِه ، إلاّ وخاضَها مَعهُم ، ولا خَرَجوا فى بَعـثٍ إلاّ وكانَ مَعهُم .

وقد رَضِىَ صلّى اللّهُ عَليهِ وسَلّم ـ عن عِكرِمةَ وعَنْ إسْلامِه ، واسْتَعملَهُ أخيراً على هَوازن .

قالتْ هُدى : صدقَ المَثلُ الّذى يَقول : يَخْلُقُ من ظَهرِ الفاسِدِ عالِما .

قال أَبوها : بَل قولى من ظَهرِ الكافرِ مُجاهِداً فى سَبيلِ اللّه .

فقد اشترَكَ فى حُروبِ الرِّدَةِ فى عَهدِ أبى بَكرِ الصِّديق ، واشْترَكَ فى القَضاءِ علَى مُسيلمَةَ الكَذّاب ، وقادَ جُيوشَ المُسلِمينَ فى عُمانَ حتى أعاد للإسْلامِ مَجدَهُ وعِزَّتَه ، ومن عُمانَ إلى مُهرَة ، حتّىَ كتبَ اللّهُ على هَذِهِ الفِتنَةِ أن تَنجَلِىَ وتُمْحىَ .

وأظْهرَ عِكرمةُ فىَ يوم اليرْموكِ بُطولاتٍ لا يُصدِّقُها عقل ، فعِندما اشْتدَّ الكربُ بالمسْلِمينَ فى أحدِ المَواقِف ، نزلَ عنْ جَوادِه ، وكسَر غِمدَ سَيْفِه ، وأوغلَ فى

صُفوفِ الرّومِ مُقاتِلا . وعندَما حاولَ خالِدُ بنُ الوَليدِ قائدُ الجَيش أن يُرجعَه ، قال : لقد قاتَلتُ رسولَ اللّهِ ـ صلّى اللّهُ عَليهِ وسلّم ـ فى مَواطِنَ كَثيرَة ، وأَفِرُّ اليَومَ منَ الرّوم ؟ إنَّ هذا لنْ يَكونَ أبَدا .

ثمَّ نادى : من يُبايعُ على المَوت . فبايَعهُ عمُّهُ الحارثُ بنُ هِشام ، وأربعُمائةٍ من المُسلمِينَ قاتَلوا جَميعاً معَ عِكرِمة ، أمامَ فُسطاطِ خالدِ بنِ الوَليد .

وكانتْ لحَظاتٍ رَهيبة ، أذهلتْ الأعداء من الرّوم حينَ برزَ عِكرِمةُ يحَصدُ الرّقابَ دونَ كَللٍ أو تَراجُع .

وانتهت المَعركَةُ ونجدُهُ هُناك على الأرض ، شَهيداً بَينَ الشُّهداء والجَرحَى : نجدُهُ هو وابْنَهُ عَمرَو بنَ عكِرمَة مُلَطّخينِ فى دِمائِهما الطّاهرة ، أَمَلاً فى اللّه أن يكونَ قد غفَرَ له ما سَبقَ مِنه من صدٍّ عن سَبيلهِ ، وما كانَ مِنه

من إساءَةٍ إلى المُسلِمين . آملاً أن يَكونَ مَكانُهُ في فَسيحِ جنَاتِهِ بين الشُهداء والصَالِحين .

قالَ أيمن : شُكراً لك يا أبي : إنَّها قصَّةٌ شائقَةٌ حَقّا ، ونَشكُركَ كثَيراً لأنَّكَ أوضَحتَ لَنا موقِفَ عِكرِمَةَ من الإسلام ، فدائماً ما نَربط اسمَ أبي جَهلٍ بالكُفْر ، ولم يَخطُرْ ببالِنا أبَداً أنَّ ابنَهُ عِكرِمةَ ماتَ شَهيداً في سَبيلِ الإسْلام .

قالَ والِدُه : أنَّ الإسلامَ يا وَلَدي لا يأخذُ أحَداً بجريرة أبيه أو ابنه ، أو أيًا ما كانَتَ دَرَجةُ قَرابَتِه .

فَكلُّ إنْسان يحُاسَبُ على عَمَلِه ، إنْ كانَ خَيْراً فخيرٌ بإذنِ اللّه ، وإن كانَ شَرّاً فشَرٌّ والعِياذُ باللّه . فعلىَ كلِّ إنْسانٍ أن يجدَّ ويَجتَهِدَ لِيَصِلَ إلى بَرِّ الأمان ، ويَحظَى برِضا اللّهِ ومَغفَرتِه بإذنِ اللّه .

والآن خُذوا حَظّكم من اللّعبِ والتّريُض ، قبلَ أن تعودوا إلىَ المَنزل .